بأقلامهم

بقلم
بيار أبي صعب*

عن الثقافة كضرورة وطنيّة

في غمرة ازماتنا السياسية والاقتصادية، والتحديات المصيرية التي تشهدها المنطقة العربية، هناك خطر من نوع آخر، يحدق بنا وبمجتمعنا، لكننا لا نتعامل معه غالبا بالجدية اللازمة. خطر التصحّر الثقافي. لقد انحسر عدد القراء بشكل مقلق، وعدد مستهلكي الابداع والفكر والفنون الجادة بشكل عام. هناك عشرات المسرحيات الجيدة كل موسم في بيروت، لكن جمهورها يقتصر على بضعة مئات من المشاهدين، نلتقيهم انفسهم في كل العروض والمناسبات. فيما كان جمهور المسرح الجاد في بيروت السبعينات متنوعا وغزيرا، من كل الفئات والطبقات.

وماذا نقول عن القراءة؟ يكفي ان نستمع الى ما يقوله اصحاب دور النشر اللبنانية العريقة في توصيف الازمة، وتراجع عدد القراء. نحن نتحدث عن بيروت التي طالما كانت عاصمة للكتاب العربي، والمركز الذي تنشر فيه اهم المؤلفات الادبية والفكرية العربية. الامر نفسه ينطبق على الموسيقى الجادة، والاغنية الجادة، والفنون التشكيلية. اذ يقتصر ارتياد الغاليرهات على مدراء المهرجانات والمؤسسات الفنية، وخفنة من الاثرياء هواة الفن والمقتنين واصحاب المجموعات. السينما الجادة بدورها تكاد لا تجد لها مساحة في المدينة، ولا بد من انتظار المهرجانات الوطنية او الاجنبية لمشاهدة اعمال ذات قيمة فنية وفكرية.

صالات السينما في لبنان اجتاحتها الانتاجات الهوليودية الضخمة، المتشابهة، ذات البعد التسطيحي والامثولة السياسية الاخلاقية الموجهة، مع جرعات العنف والانفجارات والخوارق. فيما الموسيقى الاستهلاكية تشوّه اذواقنا باغنيات سطحية، وتطاردنا كيفما توجهنا، من الاذاعة والتلفزيون الى الحفلات العامة وشبكات التوزيع المهيمنة. اما المسرح الاستهلاكي، فحدّث ولا حرج. كلها "سلع" لها الحق في الوجود طبعا، شرط ان لا تحتكر السوق، وتطبع بطابعها المشهد العام، وتصبح المرجع الاوحد للذوق، و"الثقافة" الوحيدة المتاحة للناس.

يذهب كثيرون الى وضع مسؤولية هذا الامية الزاحفة على عاتق "العصر الرقمي". طبعا هذه محاولة كسولة للتهرّب من فهم تحديات التكنولوجيا، ووضعها في خدمة الذوق والفكر والمعرفة.

القراءة تكون عبر مختلف الوسائط: في الكتب او على الجدران، على الشاشة او كما في ماض سحيق، على اوراق البردي! المهم ان تبقى القراءة حاجة حيوية لتنمية انسانيتنا، وبناء المجتمع، والانتماء الى الحضارة البشرية. بل ان التطور التقني فتح لنا ابوابا جديدة، مثل تلقي المحتوى سمعيا، عبر تقنية النصوص والمقالات والكتب المقروءة، او ما يسمى بالـ "بودكاست". اي ان طالب المعرفة لن يعدم اليها سبيلا مهما تغير الزمن.

ما يشجع على الامية، والاستغناء عن المعرفة والتفكير والتذوق، هو النمط الاستهلاكي القائم على استعمال سطحي للتقنيات والماكينات من حولنا، بصفتها معيار التطور، وعلى تمحور اهتمامنا ومشاغلنا حول المادة والمظاهر الخارجية، بصفتها المعايير الحصرية للنجاح والسعادة. "ماذا نستطيع ان نفعل في مواجهة العصر؟"، قد يقول بعضهم بنبرة انهزامية. نستطيع الكثير. فالعصر ليس قائما على الامية، بل على تطوير المعارف. اما التراجع، فهو مسؤولية الانظمة التربوية، والثقافة المهيمنة في المدرسة والجامعة، وفي البيت والشارع، وفي مختلف وسائل الاعلام. حين يُدخل النظام التربوي زيارة المتاحف والمسارح في صلب المنهج الدراسي، ستصبح الثقافة جزءا من عناصر تكوين شخصية التلامذة. حين يعاد النظر في المناهج وتقنيات التعليم لتصبح عصرية ومشوقة، لا صعبة ومضجرة، سيستمتع التلامذة بقصيدة لسعيد عقل او محمود درويش، كما يستمتعون باغنية راب لـ"امينيم" او "فيفتي سنت". حين يكرّس التلفزيون برامج عصرية وذكية ومسلية لبث حب الثقافة والتعريف بها، وتقديم الاحداث الثقافية، سيذهب الناس الى المسرح كما يذهبون الى المطاعم والنوادي الليلية.

في قلب ازماتنا الوجودية، الثقافة هي خشبة الخلاص. انها جوهر الهوية الوطنية، وصمام الاستقرار الاهلي، وفضاء الحوار والقبول بالآخر. ان امة بلا ثقافة هي امة بلا مستقبل. ان مجتمعا يكتفي بالثراء المادي هو جسد بلا روح. ان شعبا بلا ثقافة يُلفَظ على قارعة الحضارة ولا يجد له مكانا بين سائر الشعوب.

* نائب رئيس تحرير جريدة "الاخبار"

ضيف العدد

بقلم الدكتور
نبيل بوغنطوس*

الإيمان بالوطن وحده ينقذنا

تتلبد الغيوم من حولنا، حالكة في معظمها كما يصورها العارفون، يصبون الزيت على النار، ما بالهم بال. كأني بهم وكلما اوغلوا في اطلاق النظريات التشاؤمية، يثبتون للناس انهم ومن موقع العارف بخفايا الامور، جهابذة في التحليل والنقد والانتقاد، وانهم وحدهم يملكون الحلول السحرية في ما لو اتيحت لهم الفرصة وتسلموا زمام الامور.

ما هكذا يتوجه المسؤولون الى الرأي العام، وليس بهذه الطرق تتم مكاشفة الناس بواقع الامور، فيظهّرونها كأننا الى الهاوية سائرون، وكأن ليس من سبيل الى الخلاص.

صحيح ان الوضع صعب، وانه على درجة عالية من الخطورة، اقتصاديا وماليا واجتماعيا. لكن من قال لكم ان الانقاذ مستحيل. قد يكون صعبا، نعم، وقد يتطلب قرارات غير شعبية في اماكن معينة، نعم. لكن، شعبنا الذي ضحى ما ضحاه وعانى ما عاناه، طوال سني الحرب في مختلف المناطق، ومن مختلف الطوائف والمذاهب وفي شتى المجالات، لم ولن يسمح للانهيار بأن يقع، شرط ان يلاقيه المسؤولون بشفافية قراراتهم، وصدقية مواقفهم، وصمود ارادتهم بالنهوض.

الشعب مدرك تماما، مثلكم لا بل اكثر منكم، ما هو الوضع عليه. كثرة تدفق الاخبار من منصات الاخبار ووسائل التواصل الاجتماعي وبرامج "التوك شو"، جعلته يكوّن فكرة جلية وواضحة عن مسار الامور.

يا ايها الذين في يدكم اتخاذ القرار، تأملوا الناس، جولوا في الشوارع، استمعوا الى العامة يفكرون في مجالسهم بصوت مسموع وعال، لا يطلبون سوى الحياة الكريمة، الحياة اللائقة بالانسان اللبناني.

وضع خطط مدروسة للنهوض ليس صعبا، والبدء من مكان ما، والاضاءة على مكامن الخلل في الماضي، والانطلاق بخطى ثابتة في اصلاح عيوب هذا الماضي، بعيدا من روح التشفي والانتقام وفتح السجلات والسجالات، ليس مستحيلا. لم يعد هناك الكثير من الوقت لاضاعته في الاتهامات يمنة ويسرة، وعيون العالم من حولنا ترقب حالنا، والى اين ستصل بنا الامور. قد يكون من بين اصدقاء لبنان، من يغار عليه وعلى مصالحه اكثر مما نغار عليه نحن، وهذا معيب. وحده الايمان ينقذنا، بلبنان اولا واخيرا، بديمومته الابدية وبدوره الذي يلعبه بين اشقائه وفي العالم. ففي الوقت الذي ينهار فيه كل شيء من حولنا، الانظار شاخصة الينا. شعوب عانت وشعوب ما زالت تعاني، وهي غير بعيدة منا، تأمل في ان يأتي وقت وتنتهي المآسي التي تحوط بها، فتسعى الى التمثل بالنهوض اللبناني في مطلع التسعينات بعد الحرب المدمرة. اعطينا امثلة تحتذى لمن هم حولنا، فما بالنا اليوم نسمح بتسلل اليأس الى النفوس والعقول.

في السياسة لدينا كثر يعملون جاهدين لتحصين موقع لبنان في وجه كل ما يعصف من حولنا، وهم نجحوا في ابعاد الكؤوس المرة عن الوطن. كذلك الامر في الاقتصاد، هناك من كانت لهم صولات وجولات في جهات العالم الاربع، ومنهم من تمت الاستعانة بهم لانقاذ اقتصاديات دول كثيرة من حولنا.

افسحوا في المجال لمثل هؤلاء في قيادة مسيرة النهوض بالاقتصاد مجددا، او اقله استمعوا الى نصائحهم وارشاداتهم، واعملوا بوحي منها. لا تسارعوا الى السبل السهلة التي لا توفر سوى المسكنات للوضع لا اكثر، بينما الحال التي نمر فيها تحتاج الى اعادة هيكلة للاقتصاد الوطني، والى جعله بابا للعبور نحو غد تختلف فيه معطيات الحياة تماما عما عرفناه على مر العقود الماضية.

لبنان لم يسقط ولن يسقط. فكما انتعش في بداية التسعينات ونفض عنه غبار الحرب، وعاد الى التألق ولعب دوره بين جيرانه، سيعود هذه المرة ايضا، وبقوة اكبر. الغبار الذي تثيره زوابع التهليل باقتراب السقوط، لا بد لها من ان تنجلي، والصراع السياسي الدائر حاليا لا بد له من نهاية قريبة. الدور الآتي في القريب العاجل هو دور رجال الاقتصاد، الذين لا بد لنا من ان نستمع اليهم وحدهم، لملاحظاتهم وافكارهم وتوجيهاتهم. الحلول في يد هؤلاء، وفي افكارهم سبل النجاة. هم الترياق لمعاناة الوطن، فاستمعوا اليهم ومهدوا السبل لنهضة اقتصادية في الصناعة والزراعة والتجارة والسياحة وكل اوجه الحياة. آمنوا بهم ايمانكم بالوطن.

* قاض في المحكمة الدولية لتسوية النزاعات - لندن